قصة المكروب

كيف كشفه رجاله

ترجمة الدكتور أحمد زكى

مدير مصلحة الكيمياء

عزرائيل يقبض بيد صفراء

— ١ —

كل الناس متفقون على أن ولتر ريد Walter Reed ، رئيس بعثة الحمى الصفراء ، كان رجلاً ذا أدب جمّ ولطف كثير ، لا يُؤخذ عليه ملامة ، ولا يُعوز ذمّته طُهر ؛ وكان يألف الاعتدال فى أعماله ، ويجرى على المنطق فى تفكيره ؛ ولا شك أيضاً فى أنه قامر بحياة آدميّين فأقحمها الخاطر على علم فى سبيل أبحاثه ، ولم يكن له مندوحة عن ذلك ، فالحيوانات تأبى كل الأباء أن تأخذ عدوى الحمى الصفراء

كذلك ليس بين الناس اختلاف فى أن جيمس كارول James Carrol ، وقد كان خشّاباً فيما مضى ، كان على أتم استعداد للتضحية بنفسه فى سبيل ما يريد ريدُ Reed إثباتَه ، وأنه لم يكن ممن تأخذه عاطفة أو رحمة بأرواح الخلق إذا ما أراد برهان أمر جلّ أو قل

كذلك يُجمع الكوبيّون[1] Cubans ، وهم الذين شهدوا البعثة تعمل من كثب فى أرضهم ، على أن الجنود الأمريكيين[2] الذين تطوعوا بأجسامهم فى التجارب عوضاً عن الخنازير الغينية المعهودة كانوا على جانب من الشجاعة لا يوصف . كذلك أجمع الأمريكيون الذين كانوا عند ذاك فى كوبا وأكّدوا أن المهاجرين الاسبانيين الذين تطوعوا فى التجارب مكان الخنازير الغينية لم يكونوا شجعاناً مخاطرين ولكن تجّاراً طامعين . أفلم يُنقد كل واحد منهم مائتى ريال أجراً عن مخاطرته ؟

وما من شك فى أنك تستطيع أن تُنحى باللائمة الشديدة على القَدَر أنْ قسا تلك القسوة البالغة على جس لازار Jesse Lazear ولكن كذلك لا بد أن تُنحى باللائمة عليه هو أيضاً ، فهو الذى أبى أن يطرد تلك البعوضة التى وقعت على ظهر يده ، وهو الذى أذِن لها أن ترتوى من دمه مِلء جوفها . والقَدَر إن كان قسا عليه فقد حنّ له من بعد موته وعطف على ذكره ، فحكومة الولايات المتحدة سمّت باسمه مدفعية فى ميناء بلتيمور[1] إحياء له ، ورتّبت لأرملته معاشاً خمسمائة وألف ريال

وسترى أن قصة الحمى الصفراء لا نقاش فيها ولا خصام ، فحكايتها متعةٌ للحاكى ، وهى فوق ما فيها من المتعة ضرورية لكتاب يَحكى عن المكروب ورجاله ، فهى تحقق الحُلُم الذى ارتآه بستور ، فهو لو قدر الآن لصاح من قاع قبره الجميل بباريس يتحدّى العالم أجمع تيّاهاً فخوراً : « ألم أقل لكم ذلك من زمن بعيد » . ذلك أنى الآن وأنا أكتب هذا أعلم أن الدنيا أصبح لا يوجد بها من سمّ هذه الحمى ما تتغطى به رؤوس ستة دبابيس . وقد لا تمضى عدة سنوات أخرى حتى لا يكون على ظهر الأرض كلها ذرة من سمها ، وتصبح الحمّى خبراً يُروَى كبعض البائدات — هذا إذا لم نكن فوّتنا غلطةً خطيرة فى التجارب المحكَمة المريعة التى قام بها ريدُ وجنوده الأمريكيون ومهاجروه الاسبانيون

كانت هذه الحرب التى انتهت بالغلبة على الحمى الصفراء مثلاً جميلاً للتعاون المجيد ، انتظم فى إدارتها وإدارتها جنود من أعجب الجنود . وكان أول من قدح شرارتها رجل عجوز غريب يُدعى الدكتور كَرْلوس فِنْلى Carlos Finlay ، أعنى من اللجية ذقنه ، ولكنه أنبتها على كل من صدغيْه ، فجاءت جميلة يغبطه الناس عليها . وكان يخلّط فى التجارب تخليطاً . وحسبه أفاضل الكوبيّين وحكماء الاطباء رجلاً مغفّلاً قديم الغفلة مغرماً بالنظريات . وعدّه الناس أجمعون رجلا مأفوناً جسوراً . فهذا الرجل هو الذى خمّن فى هذه الحمى تخمينة أبعدت فى الاغراب

(١) نسبة إلى كوبا وهى أكبر جزيرة فى جزر الهند الغربية وأغناها وتقع فى مدخل خليج المكسيك وعدد سكانها نحو ٢ ملايين . وعاصمتها هفانا أوهبانا . استوطنها الأسبانيون واستعمروها وحكموها أربعة قرون ثم قامت ثورة عام ١٨٩٥ ضد الاسبانيين فتدخلت فيها الولايات المتحدة بالقوة . وكانت نتيجة ذلك استقلال كوبا عام ١٩٠٢ ، وحوادث هذا المقال حدثت فى فترة الثورة والحرب عام ١٨٩٩ إلى ١٩٠٢

(٢) يقصد بأمريكا والأمريكيين فى هذا المقال الولايات المتحدة وسكانها

(١) ميناء شهيرة فى ولاية ماريلاند بالولايات المتحدة

ولـكنها وقعت فى الصميم من الصواب

نعم عدّه كل أحد مأفوناً ، لأن كل أحد من الناس عرف عرفان اليقين كيف يدفع هـذا الوباء المخوف — هذه الحمى الصفراء ! وكان لـكل أحد طريقته لدفعها : قال بعضهم : يجب تبخير الحرائر والسّتان Satin ومتاع الناس جميعاً قبل خروجه من المدن الوبيئة . وقال آخرون لا ، فهذا غير كاف فلابد من حرقه جميعه ، لا بد من حرق الحرائر والستان والأمتعة ولابد من دفنها ولابد من إتلافها قبل دخولها مناطق الوباء . وقال قوم : ليس من الحزم أن تصافح أصدقاءك إذا كان لهم أقرباء يموتون بالحمى الصفراء . وقال آخرون : ليس فى هذا ضرر أبداً . وقالت جماعة ثالثة : إن الخير فى هدم المنازل التى دخلتها الحمّى ، فليس بكاف تطهيرها بدخان الـكبريت . وعلى اختلافهم هـذا فقد أجمع الناس فى جنوب أمريكا وفى أوساطها وفى شمالها ، مدة قرنين تقريباً ، على أنه إذا حدث أن أهل مدينـة أخذت تصفرّ وجوههم ، وتَشخَص الريحُ من صدورهم ، ويصعد القيء أسودَ من جوفهم ، ثم أخذوا يموتون بالعشرات والمئات كل يوم ، لم يبق لعاقل ما يفعله إلا أن ينتفض على رجليه ، ويتجه إلى أقرب باب للمدينة ويسير قُدُماً غير لاوٍ عن يمين أو يسار حتى يخرج منها . ذلك أن عزرائيل ذا اليد الصفراء يحذق النفاذ من الحيطان ، واستراق الخُطا على الأرض ، وصاعقة الناس من وراء الأركان ، حتى النار يحوس خلالها ؛ وقد يحق عليه الموت ، ولـكنه لا يلبث أن يُبعث حيّا . ويقوم الناس لمطاردته وفيهم أحذق الأطباء ، فبعد أن يخطئوا فى مطاردته أكثر ما يستطيعون من أخطاء ، يأتونها بأكثر ما فى قلوبهم من هوس ، يجدون هـذا القاتل الفلاّت لا يزال فى قتله قائماً ؛ ثم يسأم القتل بغتة فيكفّ عن الناس . ويجيئه هذا السأم دائماً فى شمال أمريكا بمجيء الصقيع

هذا ما كان من علم الناس عن الحمى الصفراء الى عام ١٩٠٠ وصاح فِنلى عالياً ملء صدغيه : « أيها الناس إنكم تجهلون . أيها الناس إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة » ، فذهبت صيحته كصرخة فى واد ، وارتد عليه صداها بالسخرية والهوان

— ٢ —

فى عام ١٩٠٠ كانت الحال فى مدينة هبانا[1] أسوأ حال . فالحمى الصفراء كانت تقتل من الجنود الامريكيين ألوفاً أكثر مما أسقط رصاص الاسبانيين ، وكان للمعهود فى الأوبئة أنها تنزل اختياراً من طوائف الناس حيث الفقر والقذر . أما هذه الحمى فنزلت فى أركان حرب الجنرال ليونارد وود Leonard Wood فذهبت بثلث ضباطه ، وضباط أركان الحرب ، كما يعلم الحربيّون ، رجال مصطَفون هم أكثر الجند نظافة ، وأكبرهم حظاً فى الحماية من الأمراض . وزأر الجنرال بأوامره فنزل رجاله على أهل هبانا غـلاً ودعكا حتى أحالوا الـكوبيّين من قوم فى وسخهم سمداء إلى قوم فى نظافتهم تمساء ؛ وصنعوا كل ما يُصنَع للمدينة ، ولـكن الوباء لم يتراجع ، بل تزايد حتى بلغ حدّاً لم يبلغه فى السنوات العشرين الماضية

عندئذ أرقت هبانا إلى وشنطن Washington ، وفى ٢٥ يونيو عام ١٩٠٠ جاء البكباشي ولتر ريد إلى كويمادوس Quemados فى كوبا ومعه أمر « بأن يُعنَى عناية خاصة بكل ماله صلة بأسباب الحمى الصفراء وبطرق منعها » . وهذا أمر كبير ، يزيده كبره كبراً إذا ذكرنا مَنْ هو ولتر ريد ؛ هو أمر حاوله بستور من قبل ! وأين ريدُ من بستور ؟ بالطبع لم يكن ريد خلواً من المؤهلات ، ولو أنك قد تعترض عليها بأنها ليست مما له صلة بصيادة الـكروب ؛ فهو جندىّ كأحسن ما يكون من الجنود ، خدم فى الغرب[1] فى سهوله وجباله أربعة عشر عاماً أو تزيد ؛ وكان يطير كبعض الملائـكة والريح تعصف والسماء تَثلِج حتى يحط على فراش المرضى ممن هبطوا تلك البقاع استمهاراً واستيطاناً ؛ وكان على خلق متين ، وجانب لَيّن رقيق ؛ وكأنى بك تقول : ما الرقة وما الخلق الكريم ومكروبَ الحمى الصفراء وهو إنما يتطلب عبقرية نادرة لاصطياده . أنت على حق ، ولـكن مع هذا سترى أن العمل الجليل الذى تم كان يتطلب قبل كل شىء خلقاً قوياً وإرداة من حديد . ومع هـذا فان ريد قام ببعض صيادة المـكروب فى عام ١٨٩١ ، وقام ببعض بحوث متقطعة فى أحسن مدرسة للطب فى كنف أستاذ هو من غير شك أشهر أساتذة المـكروب فى أمريكا ، وكيف لا يكون هـذا الأستاذ هكذا وهو الذى عرف كوخ وخالطه مخالطة الحميم حميمه

وجاء ريد إلى كيمادوس . وبينما هو يدخل مستشفى الحمى

(١) عاصمة جزيرة كوبا كما ذكرنا

(١) يقصد غرب الولايات المتحدة

الصفراء مرّ به عدد كبير من شباب الجند الأمريكى خارجا منه محمولاً على الأعناق ... فاطمأن ريد الى أن العمل لن يعوزه ، وأن المرضى الهالكين كثيرون . وكان مع ريد الدكتور جيمس كارول James Carroll ، ولم يكن ممن يوصف بالرقة تماما ، ولكنك ستجد بعد قليل أنه نعم الجندى الباحث كان . ووجد ريدُ جس لازار Jesse Lazear فى انتظاره ، وكان صياد مكروب متدرّب تدرب على صيادتها فى أوربا . وكان له من العمر خمس وثلاثون سنة ، وكانت له زوجة وطفلان خلّفهما وراءه فى الولايات المتحدة ، وكانت تبدو فى عينه نُذُر الموت . وكان رابع الثلاثة أرستيدس اجرامونتى Aristides agramonte ، وكان كربياً ، وكان عمله قطع إجثث الأموات . وأحسن عمله إحسانا كبيرا ، ولكن اسمه لم يَذع لأنه كان أصيب بالحمى فتحصّن منها فخلا عمله من المخاطر . فهؤلاء الأربعة هم « بعثة الحمى الصفراء »

وكان أول ما سمعته البعثة أن عجزت عن إيجاد المكروب فى الحالات الثمان عشرة الأولى التى فحصتها ، وكان منها حالات غاية فى السواء ، ومات منها أربع . ولم يتركوا حالة من تلك الحالات إلا ضبعوا وأوغلوا فيها فحصاً وتنقيباً ، فمن ابتزاز دم الى تزريع مكروب الى تشريح جثث . وكثرت زريعات المكروب حتى لم يحصرها عدٌّ ، ولكنهم لم يجدوا فى أيها بغية واحدة . وكان الوقت صيفا ، والشهر يوليو ، وهو أسوأ الشهور لهذه الحمى . وخرجت الجنود من المستشفى متلاحقة وهى أجساد هامدة

خابت البعثة خيبة كاملة فيما ارتجت ، ولكن من هذه الخيبة كان النجاح . فهذه إحدى خصائص هذه الصناعة صناعة المكروب . وهذا هو الأسلوب الذى يَدْرُج عليه فُنّاصه ليجدوا منه مثل الذى وجدوا . وجد إسميث ما وجد من القُرّاد لأنه آمن بالذى قاله الفلاجون . ووجد رونالد رُس Ronald Ross[1] ما وجد مما يفعل البعوض الأشهب لأن بتريك منسون Patrick Manson[2] دلّه عليه . وكشف جراسى Grassi[3] ما كشف عن بعوضة الملاريا بدافع من وطنيته . وهذا ريدُ يخيب فى أول خطوة يخطوها ، وقد يقول كل أحد إنها أهم خطوة يخطوها ، فماذا هو صانعه ! لا شىء . فلم يبق لديه مايصنعه . وإذن توفّر لديه الوقت الكافى ليفرُغ الى نفسه ويُفكر ويُصغى الى صوت ذاك المغفل القديم ذى النظريات ، صوت الدكتور كارلوس فنلى يصيح : « أيها الناس إنكم تجهلون ! إن الحمى الصفراء تأتى من بعوضة ! »

وخفّ رجال البعثة إلى هذا الرجل المأفون الذى ضحك منه كل سنّ ، وصُمّت دونه كل أذن . فتلقاهم هذا الشيخ بالسرور والترحاب وأخذ يفسر لهم نظريته ، ويذكر لهم أسبابا غامضة إلا أنها مبدعة جميلة حَدَتْ به إلى اتهام البعوض فى نقل أسباب الحمى الصفراء . وأطلعهم على نتائج تجارب أجراها هى بنفسه التجارب لا تقنع أحداً . وأعطاهم بعض بيض أسود اللون مستطيل كالأصبع وقال لهم : « هذا بيض المجرم » . فأخذ ريد البيض وأعطاه إلى لازار ؛ وكان هذا فى إيطاليا من قديم فعرف هناك بعض الشىء عن البعوض . فأخذه لازار ووضعه فى مكان دافىء فانفقس عن دُوَيدة انقلبت إلى بعوضة صغيرة غاية فى الحسن كأنما شُدّت على ظهرها أوتار من فضة فتراءى كالقيثار

خاب ريد ، ولاشك فى هذا . ولكن إلى جانب إقرارنا له بالخيبة ، يجب أن نُقرّ له بقوة الملاحظة الحادة ، وبكثير من التميز وحسن التبصر فى الامور ، وستعلم فوق هذا أنه كان كبير البخت محظوظاً . ومن ملاحظته وهو فى غمرة من إخفاقه أن رأى حالات للمرض ثقيلة فظيعة ، احمرّت فيها عيون المرضى كأنما صعد الدم متدفقاً فيها ، واصفرت صدورهم فصارت كأنها الذهب وأخذوا يفوقون[1] ويتهوعون إنذاراً بالسوء . ثم رأى المرضات يَجُسن خلال هذه الحالات وينلن منها ويتلوثن بها ، ولكنهن بالرغم من ذلك لم تجنهن الحمى الصفراء أبداً

---

(١) مستر رونالد رس طبيب انجليزى اختص فى أمراض المناطق الاستوائية وبخاصة الملاريا . وهو الذى اكتشف كيف أن الملاريا تنقل طفيلياتها من انسان لانسان بواسطة البعوض فى عام ١٨٩٨ وما بعده . وكان ذلك تطبيقاً لنظرية بتريك منسون (المترجم)

(٢) بتريك منسون هو الذى اكتشف فى عام ١٨٧٩ كيف أن دودة تسبب مرضا استوائياً مشهوراً (فلارية بنكروفت) إنما تنتقل = وهى جنين من إنسان لانسان بأن تمتصها بعوضة من دم الأول ، ثم هى تتطور فى البعوضة ، ثم هى تدخل بعضة البعوضة فى جسم الانسان الثانى . على أن قيمة هذا الكشف لم تظهر إلا عام ١٨٩٨ لما طبقها السير رونالد رس فى دراسة الملاريا

(٣) جيوفانى جراسى عالم إيطالى فى الحيوان مات عام ١٩٢٥ . له أبحاث كثيرة فى الأحياء الدنيا ومنها طفيلية الملاريا وطريقة انتقالها فى الانسان المترجم

(١) فاق الرجل شخصت الريح من صدره من غير قىء

فناقش ريد رجال بعثته ، قال : « لو كان الكروب أصل هذه الحمى بمثل ما هو أصل الكوليرا والطاعون ، إذن لأصاب المرضات فجاءتهن الحمى »

وأخذ ريد بعد ذلك يلاحظ ألا عجيب شتى تقوم بها هذه الحمى ، فرآها تظهر فى كيادوس فجأة حيث لا مظنة لظهورها : جاءت رجلاً يسكن فى منزل رقم ١٠٢ بشارع ديل ، وإذا بها تنطمن هذا الشارع فتنعطف إلى شارع الجنرال لى فتنزل بساكن به فى منزل رقم ٢٠ . ثم هى تنط ثالثة إلى الصف الآخر من هذا الشارع . ولم يكن بين المصابين صلة ما ، ولا التقى بعضهم ببعض أبداً

قال ريد : « كأنى بهذا الحال يشير إلى أن شيئاً ينقل المرض عَبْرَ الهواء من دار إلى دار » . وكانت هناك حيل غريبة أخرى تأتيها هذه الحمى درسها عنها كرتر Carter الأمريكى : تصيب الحمى رجلا فى منزل ، فقد يموت وقد يُشفَى فيرحل عن المنزل ، ثم يمضى على هذه الاصابة أسبوعان فلا يحدث جديد ، ثم ينقضّ البلاء كالصاعقة ، فاذا بنفر من أهل هذا البيت يصابون بها . قال ريد لرجاله : « كأنى بمكروب من هذا البلاء يتريّث أسبوعين فى بطن حشرة ليستكمل نموّه » ، فلم يصدقوه ولكنهم كانوا جنوداً طائعين

قال ريد : « وعلى هذا فقد يكون صواباً ما ارتآه فنلى Finlay عن البعوض ، وعلى أساس فكرته فلنقم بالتجربة » . فاعتزامه التجريب كان بناء على الاسباب السابقة والملاحظات السالفة ، وعلى الاخص بناء على أن البعثة لم تدر ما تصنع بعد الذى صنعته

وكان القول بالتجريب قولاً هيّناً . ولكن كيف يكون البدء فيه ، والمعروف الثابت أن الحمى الصفراء لا يمكن إعطاؤها للحيوانات ، حتى القردة وهى أقرب إلى الانسان خلقاً لا تأخذها . ولكن لاثبات أن البعوض ينقل الحمى لا بد من حيوانات للتجريب ، وإذن لم يبق إلا أن تكون هذه الحيوانات آدمية . ولكن أيكون معنى هذا إعطاء هذه الحمى عمداً لبعض الناس ! إن الاحصاءات دلّت على أن الوافدة إذا حلّت فقد يموت من المصابين ثمانون وخمسة من مائة ، أو قد يبلغون خمسين ، وعلى أية حال لا يقل الموتى عن عشرين فى المائة . إذن فاعطاء الحمى عمداً لبنى آدم قتل للأنفس التى حرّمها الله ! ولكن هنا تتدخل شدة أخلاق ريد وصلابته لتلعب دورها الكبير . كان ريد رجلاً لا شائبة فى خلقه ، ولا عائبة فى ذمته ، وكان مؤمناً ، وبالرغم من اعتداله كان الرجل الذى اصطفاه الله لخدمة أهله بنى هذه الانسانية على مثل هذا الأسلوب الوعر المتطرف . وتخيّل إسميث أنْ قد ثبت له أن البعوض وحدَه هو ناقل هذه الحمى وتخيّل ما يكون بعد ذلك من أحداث خطيرة ... !

وطاف نهار يوم بين رجال صُفر يحتضرون . فلما جاء الليل بحرّه الشديد ، جمع رجاله ثم قام فيهم فقال من حديث : « ... فلو أننا نحن رجال هذه البعثة قمنا فجازفنا بأرواحنا فأذِنّا لبعوض تغذّى من دم قوم محمومين أن يَعَضّنا ويشرب من دمائنا ، إذن لضربنا خير المُثُل للجند الأمريكيين ... » . ونظر إلى لازار . ونظر إلى كارول

قال لازار : « أنا أقبل عضة البعوض » ، وكانت له زوجة وطفلان

وقال كارول : « اعتمد علىّ ياسيدى وتوكل على الله » ، وكانت له زوجة وخمسة أطفال ، ولم يكن له من متاع الدنيا غير أجر جراح مساعد فى الجيش ، وهو أجر حقير معروف ، وغير عقل الباحث ومزاجه

(يتبع)

أحمد زكى